Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

البعد الصوفي في دلالة الألوان عند الشاعر عبد الله العشي
ديوان مقام البوح — أنموذجا —

أ. أوكالي نجاح .باحثة دكتوراه
قسم اللغة والأدب العربي. كلية الآداب واللغات . جامعة الجزائر 02

ملخص :

تناول البحث دراسة البعد الصوفي في دلالة الألوان للشاعر عبد الله العشي من خلال ديوانه "مقام البوح" ، هذا الشاعر الذي تتزاحم الخطابات في أعماقه ، و تتسامى قوالب الكتابة لديه ، فتتكاثف و تتكاتف و تتلون بألوان الطبيعة محلقة به في عالم شعري فيه تَمَثُّل للرمز والتراث الصوفي ، وشاعرنا كغيره من الشعراء استعمل الألوان و صبغ بها شعره ، إلا أنه نحا منحى الشعراء المتصوفة ، فتجلى فيه خطاب النفس والروح في سموها ، وقد تمكن من بناء ديوان شعري تفرد فيه عن غيره وفتح مجالا لمزيد من الدراسات .

كما ظهر أثر القرآن والشعر الصوفي واضحا في استخدام الألوان ليدلل بها على حالات من الوجد والحُلول ، ارتقى بها الشاعر إلى مقامات سبقه إليها فحول شعراء الصوفية.

الكلمات المفتاحية : مقام ، البوح ، الشعر ، الصوفي ، الدلالة ، البعد .

Résumé

La présente étude consiste sur la signification dans l'ouvrage du poète Abdallah Elachi intitulé Makam Al baouh . Car la couleur est utilisée dans la vie quotidiene soyant d'accord sur sa signification ou non.

Notre poète a utilisé les couleurs d'une façon distinguée en suivant le chemin des grands poètes soufies, dont le discours s'adresse vers l'esprit et l'âme dans leurs progression.

Elachi a construit son ouvrage qui donne la possibilité à différentes études dans l'avenir.

L'effet du coran et de la poésie soufie est très clair dans l'utilisation des couleurs et dans leur signification pour atteindre la situation de joie et de passion en imitant la voie des poètes satiriques.

مقدمة :

تختلف اللغة الشعرية عن لغة الاستعمال اليومي في كونها لغة رمزية مجازية بامتياز، تكتنز الكثير من الدلالات المنفتحة على مختلف التأويلات، وكلما ازداد انغلاقها اتسعت آفاق

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

تأويلها، خصوصا إذا وظفت الرموز ذات الاستخدام الضيق مثل اللغة الصوفية؛ كونها تعتمد على تكسير نظام الأدلة بشكل يصعب على العقل إيجاد قراءة محددة وثابتة ؛ وذلك يتطلب تعاملا يتجاوز الرؤية المعيارية التي تتحكم في نظام اللغة .

وأمام مناعة النص الشعري الذي أعلن تمرده وعصيانه على أنظمة اللغة ليفرض منطقه وخصوصيته، تسعى مختلف الاتجاهات النقدية إلى ملاحقة المعنى من خلال إفراز النظريات والمناهج، ويبقى المتكأ المشترك بينها على اختلاف منطلقاتها الفلسفية وتوجهاتها الفكرية والعلمية هو التأويل، فكل تلك النظريات تتفق على انتهاج مسلك الفهم والاستيعاب ثم الشرح والتفسير، إلا أنها تتمايز في الجدل بين السعي وراء قصدية المؤلف باعتباره مالكا للنص، وبين قصدية النص باعتباره كيانا منفصلا عن كل سياق خارجي، وبين ما يريده القارئ / المؤول ، لا وعي الكاتب المبدع الذي لم يعد يمتلك أية سلطة على نصه وإنما هو ملك مشاع وليس لديه الحق في تحديد معناه ولا في توجيه تأويله وقراءته .

من هنا فإن الكتابة بوصفها فعلا قصديا من المؤلف، يجعل القارئ / المؤول ينظر إلى النص بكل جزئياته على أنه مجموعة من العلامات اللغوية ، وكل علامة منها تستثير شكوكه، وتنتظر استجابة وتأويلا، وعليه أن يستنطقها للكشف عما تكتنزه من أسرار قد تساعده في الوصول إلى المعنى العام للنص الذي يعد المنطلق الموضوعي لأية مقاربة، لأنه الوسيط اللغوي الذي ينقل فكر المؤلف إلى القارئ وهو الكفيل بأن تكون عملية الفهم والتقارب بينهما ممكنة .

انطلاقا من هذه المعطيات ، أردنا استجلاء البعد الصوفي في دلالة اللون للشاعر **عبد الله العشي** من خلال ديوانه **مقام البوح** والذي يكشف عن فضاء عرفاني آسر، يرتاده هذا الشاعر الزاهد الناسك في ملكوته الشعري ، شاعر لم يكن يبوح بشعره للقارئ، لكنه يبوح بسره لشعره [1] .

ديوان مقام البوح :

يمثل ديوان" مقام البوح " للشاعر عبد الله العشي عملًا شعريًا جيدًا، وخلاصة تجربة فنية رائدة في فن كتابة الشعر الحر أو قصيدة التفعيلة. ويقع الديوان في سبع عشرة قصيدة ، قدم لها الشاعر بإهداء قصير، يقول فيه : " إلى من يحس أن هذه القصائد كتبت له ، أو كتبت عنه ، أهدي هذا الديوان " . و عبد الله العشي شاعر حداثي تفرد بالخوض في مجال الزهد، لان القارئ لديوان "مقام البوح" بشكل متمعن يرى حشدًا من المصطلحات الصوفية التي وردت في شعر ابن الفارض والسهروردي وفي فلسفة محي الدين بن عربي وغيرهم . فالعنوان وحده مركب من لفظتين صوفيتين بامتياز هما " المقام " و " البوح " ، والصوفي يرى أن الزاهد العابد يتدرج في مقامات السالكين للوصول إلى قمة الصفاء ، كما يرى الصوفي أنه صاحب سر لا يبوح به ، ومتى باح به كان عرضة للكشف، ففي قصيدة السهروردي المشهورة تردد البوح مرات ، منها :

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكــذا دمــاء العاشقين تباح [2]

كما يظهر الأثر المباشر لعمر بن الفارض في ديوان العشي حيث أورد شطرًا من يائيته في قصيدته " تجاوب " وهو : هذا هو الفردوس " يطوي البيد طي " [3] .

إن عملية جرد للمصطلحات الصوفية في شعره تبين تردد حشد كبير منها كمصطلح " العشق " و" الوجد " و" الحضرة " و" الخُمرة " و" السُكر" و" النشوة " و" المدد " و" العروج " و" الفيوض" و" الملكوت " و" المقام " و" القدسية " و" الحلول " و" الشوق " ... الخ ، هذا التكدس يحملنا على الجزم بأن الشاعر "عبد الله العشي" ينتمي إلى الشعراء المتصوفة .

ومثلما هو الحال في شعر الصوفية ، فإن معاني الألفاظ ينصرف إلى غير ما ألفه الناس في لغتهم المعتادة ، وعلى ذلك يمكن للفظة واحدة أن يكون لها أكثر من مدلول وتأخذ المعنى الذي يفهمه القارئ نفسه ، قد يكون هو المقصود في قول الشاعر، وقد لا يكون الشيء نفسه ينطبق على دلالة الألوان عند شعراء الصوفية ، فاللون يخرج عن دلالته المعهودة التي يتداولها الناس في دنياهم إلى دلالة قد يصعب فهمها إلا بالعودة إلى قراءة تراث المتصوفة الذين حملوا ألفاظ القرآن إلى معاني يصعب على العامة فهمها .

وعلى الرغم من أن " العشي " أورد في ديوانه اللون الأبيض والأسود والأخضر والأزرق ، وهي ألوان معروفة بحقيقتها ، إلا أنها تحمل دلالات أخرى سنحاول الوقوف عليها في هذه الدراسة مستندين الى المفاهيم والدلالات التي وردت في أشعار وكتب المتصوفة .

دلالات الألوان :

بيّن السياق الذي وردت فيه الألوان العلاقة بين النفس كموصوف في شعر " عبد الله العشي " وبين الدلالات التي استخرجها كبار علماء الصوفية عند تفسيرهم لآيات القرآن الكريم واستلهموها في شعرهم ، فلو تتبعنا آيات القرآن التي تحدثت عن الألوان لوجدناها مليئة بالمعاني التي تنتقل من حقيقة اللون المعروفة عند سائر الناس إلى دلالات أخرى أكثر رمزية ، وهكذا نستطيع القول أن شاعرنا صاغ لنفسه نظرية جديدة في الشعر الجزائري المعاصر حاول فيها تجاوز ما وقف عنده غيره من الشعراء ليبحر في عالم الصوفية المليء بالدهاليز، والتي تحاول السمو بالنفس البشرية لتصل بها إلى مقامات أعلى تتعلق بالمعبود وتذوب فيه .

دلالة اللون الأبيض :

إن اللون الأبيض الذي تضمنته بعض القصائد كقصيدة " تجاوب " [4] :

هَا هِيَ تُقْبِلُ مِنْ وَرَاءِ الأُفُقْ
أَنْصَعَ مِنْ بَيَاضِ الغَيْمْ
أَجْمَلَ مِنْ صِبَاهَا.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

وَأَنَا أُقَاوِمُ خُطْوَتِي، مُسْتَعْجِلًا
أَمْحُو المَسَافَاتِ بَيْنَنَا،
حَتَّى تَحُلَّ بِدَايَتِي
فِي مُنْتَهَاهَا

ـ وقصيدة " حرائق الفتون " [5] :

فَيْرُوزَةً مِنْ سُنْدُس
وَحَمَامَةً مِنْ نَرْجَسٍ.
وَرَأَيْتُ دُنْيَا غَيْرَ مَا أَلِفَتْ عُيُونِي :
ضَوْءًا يُمَازِجُ بِالَبهَا ضَوْءَا...
وَيَدْنُو مِنْ جُفُونِي ...
سِحْرًا،
وَيَحْضُنُ غَيْمَةً بَيْضَاءَ فِي عِشْقِ هُتُونِ
وَرَأَيْتُ :
مَلَكًا مِنَ الفِرْدَوْسِ
يُدْنِينِي مِنَ المَلَكُوتِ...
أَسْمَعُ مَا تُرَدِّدُهُ المَلَائِكُ
مِنْ نَشِيدِ الوَجْدِ...
فِي أَعْلَى المَقَامَاتِ

يؤشر البياض إلى الصفاء والطمأنينة التي تغمر النفس البشرية لارتباطه بالغيوم ذات التردد الكثير في لغة الشعر الصوفي ، وهي منبع الماء الصافي الخالي من الشوائب والمكدرات ، فالشاعر يحوم في ملكوت الحق ويسرع الخطى كي يمحو المسافات ، حتى يدنو منه فيرى أنّ النهاية قد صارت بداية وصار الحق أنصع من بياض الغيم وأبهى من نقاء الفطرة ، وانكشف عنه الغطاء فرأى ملكا من الفردوس وملكوتا تردد فيه الملائك نشيد الوجد في أعلى مقاماته ، فالبياض ارتبط بصفاء النفس التي انسلخت من لذاتها وفارقت حظوظها الدنيوية .

وللون الأبيض مدلولات روحية وظاهرية كثيرة تناولها الفكر الصوفي في تأويله لبعض آي القرآن بشكل واسع ، فالنور الأبيض هو أقرب الألوان دلالة على الواحدية ، فهو من حيث الحقيقة يتضمن الألوان جميعها الأساسي منها والمركب وحتى اللون الأسود ، فهو واحد جامع للألوان . ومن حيث المرتبة فإن الواحدية هي أنزل من الأحدية ، كذلك الحال فإن مرتبة النفس المطمئنة ذات اللون الأبيض ، هي أنزل من النور الأخضر الخاص بمرتبة النفس الراضية ، والنور الأسود

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

الخاص بمرتبة النفس المرضية و هو آخر ألوان مراتب النفس وليس فوقها إلا الكمال المطلق الذي لا لون له [6].

يظهر اللون الأبيض في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران 107/106] .

يذهب ابن عربي في تأويله للآية إلى (أن ابيضاض الوجه عبارة عن تنوّر وجه القلب بنور الحق للتوجه إليه والإعراض عن الجهة السفلية النفسانية المظلمة ، وذلك لا يكون إلا بالتوحيد والاستقامة فيه، واسوداده هو ظلمة وجه القلب بالإقبال على النفس الطالبة حظوظها والإعراض عن الجهة النورية الحقية لمصادقة النفس ومتابعة الهوى في تحصيل لذاتها، وذلك إنّما يكون باتباع السبل المتفرقة الشيطانية،﴿ أَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ فيقال لهم: ﴿كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أي احتجبتم عن نور الحق بصفات النفس الظلمانية، وسكنتم في ظلماتها بعد هدايتكم وتنوّركم بنور الاستعداد وصفاء الفطرة وهداية العقل (ذوقوا) عذاب الحرمان باحتجابكم عن الحق [7] . في حين يرى القشيري : (أن أرباب الدعاوى تسوّد وجوههم، وأصحاب المعاني تبيض وجوههم وأهل الكشوفات غدا تبيض بالإشراق وجوههم ، و أصحاب الحجاب تسود بالحجبة وجوههم ، فتعلوها غبرة ، وترهقها قترة) [8] .

ويرى ابن عجيبة أن الإشارة في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: 27] مفادها أن الله تعالى أنزل من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية ، فأخرجنا به ثمرات ، وهي العلوم والأذواق والوجدان، مختلف ألوانها، فمنها علوم الشرائع ، وتحقيق مسائلها ، ومنها عن العقائد، وتشييد أدلتها وبراهينها، ومنها علوم اللسان بإتقان قواعدها ، ومنها علم القلوب وتصفيتها من العيوب، وهو علم الطريقة ، ومنها علم الأسرار، وهي أسرار الذات والصفات ، وهو علم الحقيقة ، ومن جبال العقل طرق بيض ، وحمر وسود ، فالبيض: طرق الكشف والبيان، وحلاوة الذوق والوجدان [9] .

دلالة اللون الأسود:

للمتصوفة في دلالة اللون الأسود آراء تخرج عن المألوف ، فابن عربي يرى الظلال في الطبيعة ضربا من العتمة والسواد ، وهي إشارة إلى ما فيها من الخفاء لبعد المناسبة بينها وبين أشخاص من هي ظل لهم ، فإن كان الشخص أبيض فظله بهذه المثابة ، ألا ترى الجبال إذ بعدت عن بصر الناظر تظهر سوداء وقد تكون في أعيانها على غير ما يدركها الحس من اللونية ، وليس ثم علة إلا البعد [10] .

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

والدلالة نفسها تتجلى في الكنايات الواردة في ديوانه ومن ذلك قوله في قصيدته " أجراس الكلام ":

يَخْطِفُنِي صَوْتُكِ مِنْ نَفْسِي
وَيُهَاجِر بِي فِي بَحْرِ الأَنْوَارْ...
وَفِي بَحْرِ الظُّلُمَاتِ
وَيَعْبُرُ بِي جُزُرًا وَمَجَاهِيلْ
وَ مَدَائِنَ سَاحِرَةً...[11]

فبعد أن يأتيه الصوت الذي يحمله فوق الأكوان ، وينشره في كل فلاة ويمسح حزنه ويمده بالحياة ويملؤه عشقا وأناشيد ، ويذروه شتات ، يخطفه من نفسه ويهاجر به في بحر الأنوار الدال على البياض ، وبحر الظلمات و الجزر و المجاهيل الدال على السواد الذي يحمل معاني الخفاء والغموض ، ليصل به الى مرافئ أكثر جمالا ويعرج به الى سماوات ساحرة ويملأ دنياه تسابيح وأورادا وصلوات حتى تتوحد ذات الصوت في ذاته لتمنحه الخلود .

ولكنه في قصيدته " القصيدة " :

حِينَ أَكُونُ يَا أَمِيرَتِي...
فِي نَشْوَةِ العِشْقِ...
تَعْزِلُنِي الحَالَةُ عَنْ ذَاتِي...
تُبْحِرُ بِي إِلَى
غَيْبُوبَةِ الذُّهُولْ
.....
مَجْلُوَّةً بِالمِسْكِ وَالنَّدَى وَالنّورْ؟
وَأَنَّنِي أَعِيشُهَا ...
فِي عَتْمَةِ الدَّيْجُورْ [12]

يكون في نشوة العشق ويغيب عن حاله ووجوده ، ويعيش حالة من الحوار بينه وبين نفسه التي تسأله فيجيبها بأنه لا ينفك عنها وأنه حتى في حالة العتمة (الديجور) أي الظلام الدال على السواد وغياب النور تكون نفسه في مرتبة الرضى .

وكذلك الأمر في قصيده " الغياب " التي يعيش فيها حال التيه والاغتراب ويبدي ضياعا واضطرابا ثم سكونا وطمأنينة ورضى، ولكأنه جزء من عتمة هذا الليل الحالك السواد :

آهِ...يَا مُرَّ الغِيابِ
.....

وَتَنْثَالُ عَلَى لَيْلِي أَضْوَاءُ الفَرَادِيسْ
وَأَنْسَابُ مَعَ النَّشْوَةِ حَتَّى لَكَأَنِّي
ذَائِبٌ فِي عَتْمَةِ اللَّيْلِ المُذَابِ
أَتَدَلَّى بَيْنَ قَوْسَيْنِ : ابْتِعَادِي وَاقْتِرَابِي [13]

وهو بذلك يحاول الترقي في مراتب النفس صاعدا نحو السموات الى أن يحتويه أفق تتكشف فيه الأسرار ، وتزول حال احتجابه وتزهر روحه .

ثُمَّ أَمْضِي...
صَاعِدًا نَحْوَ السَّمَوَاتِ إِلَى أَنْ يَحْتَوِينِي
أُفُقٌ أَبْعَدُ مِنْ حَالِ احْتِجَابِي
كَمْ مِنَ العُمْرِ...
لِكَيْ تُزْهِرَ رُوحِي [14]

اللون الأسود ومراتب النفس :

يقع تسلسل نور اللون الأسود لمراتب النفس في المرتبة السادسة ، وهي مرتبة النفس المرضية ، إذ بعد أن تقطع النفس مراتب الرقي لتحصيل كمالها من خلال الطاعات ونوافل العبادات ، فتبدأ أولا بمغادرة مرتبة النفس الأمارة بالسوء ذات النور الأزرق ، ومن ثم مرتبة النفس اللوامة ذات النور الأصفر، من بعد ذلك مرتبة النفس الملهمة ذات النور الأحمر، ومع مواصلة العبادة والنوافل ترقى إلى مرتبة النفس المطمئنة ذات النور الأبيض ، ومن ثم ترقى إلى مرتبة النفس الراضية ذات النور الأخضر، فتصل بعد هذا إلى مرتبة النفس المرضية ذات النور الأسود، فيحصل لها التقريب الإلهي والاعتناء فتفنى في الله وتكتمل به تعالى وتسمى مرتبة النفس الكاملة التي لا لون لنورها [15]

و الأسود يترك لدى المتلقي ، أو المشاهد انطباع روحيا يصعب تفسيره ، إلا لدى أهل الأذواق، فمن يرى هذا اللون يخالجه شعور بالرهبة والخوف ، وهو شعور نابع من خلال المعطيات الروحية لهذا اللون ، امتزج فيه الخوف من الحجب الظلمانية ، أو اسوداد الوجه والخزي في الآخرة ، أو هو عنوان لما سيحصل لمن كانت صفاته صفات الكافر ذو اللون الأسود أو المؤمن الناكث الذي سيقابله الحق بالطرد من رحمة المعارف المطلقة يوم القيامة [16] .

دلالة اللون الأخضر:

يدل الأخضر على البدايات الجديدة ، والكثرة ، والصحة الجيدة ، والأرض ، والنقاء ، والطبيعة ، والنمو، والتفاؤل ، والتجديد المستمر، والقوّة ، والنشاط ، والحيويّة ، والخير، والسلام،

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

بالإضافة إلى الحبّ، فكلّ ما هو أخضر يدخل قلب الإنسان ونفسه بسهولةٍ ، وكلّ ما ينبض بالحياة يتلوّن به.

أما بالنسبة للون الأخضر في ديوان شاعرنا ، فهو أحيانا يحمل دلالة البهجة والسرور والنضارة، والحياة، والرائحة الطيبة، والحب ، و يرتبط بالحدائق والجنان ، وهو لون النفس الراضية التي تمتلئ بشرا وتفاؤلا ، وهي تتجلى في العتمة والنور . وهذا ما ورد في قصيدة " القصيدة " :

تَلُومُنِي أَمِيرَتِي
وَهَلْ دَرَتْ بِأَنَّنِي أَعِيشُهَا ...
غَزَالَةً خَضْرَاءَ فِي حَدَائِقِ الفَيْرُوزْ
مَجْلُوَّةً بِالمِسْكِ وَالنَّدَى وَالنّورْ؟ [17]

ومثل قوله في قصيدة " التآويه " :

كَمْ أُنَاجِيكِ عَلَى مَرِّ الثَّوَانِي
ظَمِئًا، تَعْصِرُنِي الوَحْدَةُ...
لَكِنْ...
حُبُّكِ الأَخْضَرُ يُحْيِينِي
بِأَمَانِيهِ [18]

ويحمل أحيانا معنى يفيد عدم المراهنة على الحياة الدنيا أو الوقوف معها لأنها متغيرة وزائلة مثل قوله في قصيدة " الغياب " :

آهِ...يَا مُرَّ الغِيابِ
كَيْفَ صَيَّرْتَ اخْضِرَارَ الرُّوحْ...
عُمْرًا يَابِسًا...
كَيْفَ شَيَّبْتَ شَبَابِي
كَمْ مِنَ الوَقْتِ سَيَمْضِي...
وَمِنَ الصَّبْرِ...
لِكَيْ أَخْرُجَ مِنْ تِيهِ اغْتِرَابِي
كَمْ مِنَ الحُزْنِ سَيَمْضِي
كَيْ أُرِيحَ القَلْبَ مِنْ حُرْقَتِهِ...
وَأُعِيدَ الفَرَحَ الأَخْضَرَ...
مِنْ بَعْدِ الغِيَابْ [19]

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

ويعضد هذا القول ما جاء في تفسير كبار علماء الصوفية للآيات القرآنية التي تضمنت اللون الأخضر، ومن بين هذه الآيات : قوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس : 80] ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 99] . وقولـه تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف : 43] . وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج : 63] . التي يكون حضور الأخضر فيها خاضعًا لحقيقته :

الأولى: وهي وجود مؤقت وزائل لأنه يرتبط ارتباطًا وثيقا بالحياة الدنيا، وكأن الحق تعالى يطلب منا أن نتأمل اللون الأخضر في الحياة الدنيا ، ولا نقف معه هنا بل يتعدى التأمّل إلى الحياة الآخرة أو إلى دار الخلود ، فقد وجهت الدعوة لنا هنا من أجل الميل التصاعدي ، وذلك على العكس من التجربة التي خاضها أبونا آدم ـ عليه السلام ـ حين أسكنه الحق تعالى الجنة وشاهد لون خضرتها الدائم ولم يدرك حقيقة جمالها إلا عندما عصى الله فأبعده عنها ، وأنزله إلى الأرض التي تختلف عن الجنة التي كان يسكنها فأخذه الندم على كل ذلك، فهام في الأرض حزنا على فعلته وأجرى من الدمع الشيء الكثير حتى غفر له تعالى بقوله: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : 37] .

فهذا يعني أن رحلة آدم عليه السلام مع اللون الأخضر قد بدأت من الجنة إلى الأرض ، وحين أدرك آدم عليه السلام أن الأخضر الأرضي غير دائم و أنه زائل ومتغير في الوقت نفسه ، أصابه الندم على فعلته التي أدت به إلى النزول لعالم الفساد والتغير، فعاود البحث مرة أخرى على مخرج يخرجه من عالم أسفل الأسفلين وما يحدث فيه ليعود إلى عالم الجنة وهو الموطن الأصلي ، فاللون الأخضر هنا يمثل لنا دعوة للتخلي والتحلي، أي: نتخلى عن الوقوف مع اللون الأخضر الأرضي لنحصل على اللون الأخضر في الجنان لأصالة الأخير وعدم تغيره أو تعرضه للفساد ، فاللون الأخضر هنا أصبح وسيلة إغراء وأداة جذب باتجاهين، ففي الآخرة يدعوك هذا اللون ويغريك باتجاه تحصيله، وفي الدنيا يدعوك و يغريك إلى تحصيله والوقوف معه ، وليس عليك إلا الاختيار الصحيح ، فتأمل الأخضر الأرضي جيدا ، وتأمل المصير الذي يؤول إليه (الزوال والرجوع إلى الأصل الترابي) ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: 21] .

فالتعلق بالأخضر الدنيوي لا يؤدي بالمرء إلا إلى الخذلان لأنه يرجع إلى أصله الطيني، في حين أن الروح يجب أن تتعلق بالجهة التي جاءت منها، وهي الجنة أو عالم اللاهوت ، لأن ذلك العالم هو عالمها الأصلي الذي تنزلت منه ، كما أن من صفات الأخضر الدنيوي قبوله للإحراق، فزواله وتحوله يتلاءم مع طبيعة هذه الحياة التي جعلها تعالى دارا مؤقتة ، لأن كل شيء فيها متغير ومتحول فهي ليست دار قرار، قال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [فاطر: 05] .

فدلالة اللون الأخضر فيها تدريجيا إلى لون التراب هي إشارة وآية منه تعالى لنا تفيد عدم المراهنة على الحياة الدنيا أو الوقوف معها ، لأنها متغيرة وزائلة كما دلت عليها أشياؤها الظاهرة في الطبيعة و هذا المعنى ذاته الذي قصده الشاعر في قصيدة " الغياب " .

أما قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : 31] . وقوله تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: 76]. وقوله تعالى: ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان : 21] .

فهو في هذه الآيات يكون خاضعا لحقيقته **الثانية** التي تمثل ديمومته وأزليته لارتباطه الوثيق بالآخرة ، وفي هذا يرى ابن عربي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا ﴾أن أهل الجنة يتصفون بصفات بهيجة ، حسنة نضرة ، موجبة للسرور [20].

ولقد أعطى اللون الأخضر دلالة البهجة والحسن والنضرة الموجبة للسرور، وهي بلا شك دلالات دائمة ومطلقة لأهل الجنة وهي تختلف عن الخضرة و دلالاتها في عالم الدنيا إذ مع كونها جميلة وحسنة وذات بهجة ، لكنها مع ذلك تبقى مؤقتة .

إن من جماليات اللون الأخضر كونه يُذَكّر بالمتجلي سبحانه وتعالى ، فالنبتة مادامت خضراء فهي دائمة العطاء سواء كان هذا العطاء من خلال لونها أو من خلال ثمرها أو من خلال صفاتها أو من خلال مقارنتها بغيرها من الكائنات الجامدة ، و اللون الأخضر في الشجر له دلالة الديمومة المبدعة الجميلة ، فكذلك الحق تعالى فهو دائم التجليات ، و لكل تجل من تجلياته جمال يختص به ، من كونه مظهرا لحقائق الحق ، وكل تجل هو أفق من الآفاق ، وكل أفق جعله تعالى وسيلة لكشف حقيقة من حقائقه ، ولذلك قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد ﴾ [فصلت: 53] .

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

كما ترى الصوفية أن للون الأخضر مدلولات روحية كونه يرتبط ارتباطا وثيقا بمراتب النفس من جهة ، ومن جهة أخرى فإن لكل مرتبة من مراتب النفس صفات ونعوت تمتاز بها عن سواها من المراتب التي تخص النفس ، فالأخضر هو نور مرتبة النفس الراضية [21].

كما يحمل اللون الأخضر دلالات أخرى كالوفاء والزهد والإخلاص والورع وترك ما لا يعني ، وهو لون من ألوان الجنة ، فمن كشف له أن لون مرتبته هو النور الأخضر فإن ذلك بمثابة البشرى له بأنه من أهل الجنان كما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: 64] .

دلالة اللون الأزرق :

ورد اللون الأزرق في قصيدة " قمر تساقط في يدي " :

هَذَا عِنَاقُ الْعَاشِقِينْ:
قَمَرٌ تَسَاقَطَ فِي يَدِي
وَتَسَاقَطَتْ مِنْ زُرْقَةِ الْحُلْمِ السَّمَاوِيِّ
فَرْحَتِي
صُوَرًا، صُوَرْ [22]

و دلالة اللون الأزرق عند " العشي " هي على ما ألفه غيره من الشعراء ، فهو يعبر عن الهدوء، ويرتبط بالماء والسماء ، كما يعني الأمل والصفاء .

يقول في قصيدة " نشيد الوله " :

هَا أَنَا أَتَمَلَّى:
أَيُّ مُعْجِزَةٍ نَطَقَتْ فِي فَمِي
أَنْطَقَتْنِي.
نَثَرَتْنِي رَذَاذًا عَلَى شَفَةِ الْغَيْبِ
وَالْأَبَدِيَّةِ.
أَيُّ إِغْوَاءَةٍ سَكَنَتْنِي
مَزَجَتْ بِالْأُلُوهَةِ إِنْسِيَّتِي
حَمَلَتْنِي وَرَاءَ الْمِيَاهِ...
وَأَدْنَتْ خُطَايَ
مِنَ السِّدْرَةِ الْقُدْسِيَّةِ
قَرَّبَتْنِي مِنَ النُّورْ...
حَتَّى تَطَهَّرْتُ مِنْ طِينَتِي

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

وَاسْتَوَيْتُ كَيَانًا

مِنَ البَرْقِ...

وَالغَيْمِ...

وَالزُّرْقَةِ الكَوْكَبِيَّه [23]

آهِ...

مَنْ دَلَّ قَلْبِي...

لِيَنْثَالَ هَذَا الجَمَالُ الوَضِيءُ...

أَمَامِي،

وبَيْنَ يَدَيَّه

وَيَغْسِلُنِي مِنْ بَقَايَايَ...

يُسَلِّمُنِي لِلْهُيولَى...

وَيُلْبِسُنِي البُرْدَةَ النَّبَوِيَّه.

فاللون الأزرق السماوي هنا يعبر فعلًا عن نظرة صوفية ارتقى فيها الشاعر إلى مقام رفيع لأنه ولهان ، قد اقتربت روحه من السدرة القدسية حتى انتهى إلى لبس البردة النبوية ، و هو هنا لون يقع بين مرتبتين هما الأبيض والأزرق القاتم ، و تبعا لذلك يعد حاملا لدلالة تتوسط دلالة المرتبتين، فالأبيض له من الدلالة الجود ، والتوكل ، و العبادة ، والشكر ، و الرضا، في حين أن اللون القاتم منه يحمل دلالة البخل ، و الحرص ، والكِبر ، والشهرة ، والحسد، والغفلة ، ويعبر الأزرق السماوي عن الطهر و الصفاء ، و الملائكية ، و السمو، والجمال، الذي يتجاوز المفهوم الحسي ، و إن كان قد استعار من السماء و الكواكب زرقتها .

فللأزرق إذن دلالات واسعة وذلك تبعا لتفاوت درجاته من الفاتح إلى القاتم ، فالقاتم منه يقترب من اللون الأسود، ولذا فهو يثير النفور، والحقد، والكراهية [24] ، بينما يرتبط الأزرق الفاتح بالماء والسماء ، فهو لون مناسب للهدوء والبرودة [25] ، وبقية الدرجات تتراوح بين هذين الحدين .

إن صاحب اللون الأزرق السماوي يكون أقرب الى الله ومحبوبا من قبله ، لإفلاته من الصفات الذميمة وترقيه الى مستوى النفس المطمئنة ذات اللون الأبيض [26] .

خاتمة :

لقد أفضى بنا مسار البحث إلى وضع العلامات الفارقة في استجلاء البعد الصوفي في دلالة الألوان عند الشاعر " عبد الله العشي " من خلال ديوانه " مقام البوح " ، فهو شاعر قد تمكن من أن يختار لنفسه سبيلًا تفرد به عن غيره من الشعراء المحدثين حيث ولج عالم كبار شعراء الصوفية، مستلهمًا من التراث الصوفي تلك الصور الجميلة، و التي تسمو بالروح إلى مقامات

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

علوية ، فغاص في العمق مستخدمًا ذلك الزخم الكبير من المصطلحات الصوفية المليئة بالرموز و الإشارات .

وإذا كانت الألوان المألوفة من الأبيض و الأسود و الأخضر و الأزرق ، سائدة الاستعمال في كلام الناس أو في قصائد الشعراء، و المرتبطة بالطبيعة مستلهمة جمال البحر و النهر و الأشجار و الطيور وغيرها، فإنها بالنسبة لشاعرنا حملت دلالات أخرى تعبر عن حالات النفس ، فجمال الألوان عنده جمال للروح ، و قد يتخطى أحيانًا اللون في دلالته عالمنا المادي المحسوس إلى عوالم أخرى، هي عوالم الروح و الغيب، مُنزلة للنفس منازل و مراتب بين الرضا و الطمأنينة وغيرها.

لقد حاولنا تتبع مسار الشاعر في استعماله للألوان ، لكن طبيعة الشعر الصوفي واتسامُه بنوع من الالتباس والتأويل ، هو ما يسمح بقراءات متعددة لدلالة الألوان عند الشاعر " عبد الله العشي"، ويبقى الباب مفتوحًا أمام الباحثين والدارسين لمحاولة استكناه أسرار ديوان " مقام البوح " الذي لم يبُح فيه الشاعر بكل ما كنا ننتظره ، إلا أنه ساهم مساهمة واسعة في إثراء الشعر الجزائري بالسعي إلى بناء منهج مستقل ، والتأسيس لمدرسة تطبعها روحه الصوفية .

الهوامش:

[1] ينظر المداخلة التي قدمت في اليوم الأدبي التكريمي الذي نظمته جمعية شروق الثقافية بجامعة باتنة يوم 2007/04/17 احتفاءا بصدور ديوان (مقام البوح) للشاعر عبد الله العشي، والتي نشرت في مجلة عمان (الأردن)، عدد 152 ، شباط 2008 ، ص 10 – 14.

[2] ديوان السهروردي ، جمع وشرح كامل مصطفى الشيبي ، مطبعة الرفاه ، بغداد ، 2005، ص58.

[3] عبد الله العشي ، مقام البوح ، دار هومة ، الجزائر ، 2007 ، ص14.

[4] المصدر نفسه ، ص 12.

[5] المصدر نفسه ، ص39 ، 40.

[6] ينظر : رفيق العجم ، موسوعة مصطلحات التصوّف الإسلامي، مكتبة لبنان، ناشرون ، ط 1، 1999 ، ص12، 1018.

[7] ابن عربي، محي الدين، تفسير ابن عربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1، ص 117.

[8] القشيري، عبد الكريم، لطائف الإشارات (تفسير القشيري) ، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، ط2، ج1، ص 166.

[9] الحسني، أحمد بن عجيبة ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق أحمد عبد الله القرشي، القاهرة، 1999، ج4، ص 536 . تفسير الآية 27 من سورة فاطر.

[10] ابن عربي ، تفسير ابن عربي ، ص 102.

[11] عبد الله العشي ، مقام البوح، ص 28.

[12] المصدر نفسه ، ص 59.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

[13]المصدر نفسه ، ص 75.

[14]المصدر نفسه ، ص 75.

[15]رسائل صوفية مخطوطة، تحقيق : سعيد عبد الفتاح، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 2007، ص40 ،41.

[16] المصدر نفسه ، ص 40، 41.

[17] عبد الله العشي ، مقام البوح، ص 59.

[18]المصدر نفسه ، ص 82.

[19]المصدر نفسه ، ص 73، 74.

[20] ابن عربي ، تفسير ابن عربي ، ص 405.

[21] رسائل صوفية ص 57.

[22]عبد الله العشي ، مقام البوح ، ص 43.

[23]المصدر نفسه ، ص 71.

[24] عمر، أحمد مختار، اللغة واللون ، دار عالم الكتب ، القاهرة ، ط 2 ، 1997 ، ص 164.

[25] رياض ، عبد الفتاح، التكوين في الفنون التشكيلية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1974 ، ص 261.

[26]دلالة اللون في القرآن و الفكر الصوفي ، ضاري مظهر صالح ، دار الزمان، دمشق، سوريا ، ط1، 2012، ص 27.